الإمام الغزالي
بين
مادحيه وناقديه

الأستاذ الدكتور
يوسف القرضاوي
عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

كان ابو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) عند جمهور المتقدمين ، حجة الاسلام ، ومجدد المائة الخامسة ، ومحيى علوم الدين ، وقد اشرنا - في دراسة سابقة لنا[١] إلى كلام كثير منهم كعبد الغافر الفارسي ، والاسنوي والسبكى وابنه ، وابن كثير ، وابن العماد الحنبلي ، وغيرهم من المعجبين به ، والمثنين عليه ، والمقتفين لخطاه .

الناقدون للغزالي من المتقدمين :

ولكن الغزالي - كغيره من عظماء التاريخ ، وقادة الفكر - لابد أن يختلف الناس فى تقويمه ، ما بين مادح وقادح . سنة الله في خلقه فلا عجب أن نجد بجوار هؤلاء جماعة آخرين انتقدوه - كل في مجاله - فانكروا عليه بعض ما كتب من مصنفات ورسائل ، أو بعض ما تبناه من افكار ومفاهيم وقيم ، أو بعض ما اختاره من طريقة في الزهد والسلوك ، أو بعض اساليبه في النقد والمعارضة . . إلى غير ذلك . على تفاوت بينهم في درجة الإنكار ، وقوة المعارضة ، وقسوة الهجوم .

نقد الطرطوشي : [٢]

من هؤلاء العلامة أبو بكر الطرطوشي المالكي (ت ٥٢٠هـ) ، الذي اتهم الغزالي بانه هجر العلم إلى العمل ، ودخل في علوم الخواطر وارباب القلوب ، ووساوس الشيطان ! ثم شابها بآراء

---

(١) في الكتاب التذكاري عن الغزالي - اصدار جامعة قطر - موضوع : الغزالي حجة الاسلام - نظرة عامة - لكاتب هذا البحث . فيلزم الرجوع اليها ، لتكتمل الفكرة عن هذا الامام العبقري .

(٢) الطرطوشي هو : محمد بن محمد ، أبو بكر الطُرطوشي من أهل طُرطوشة بشرق الاندلس ، من فقهاء المالكية الحفاظ ، ولد سنة ٤٥١هـ وتوفى سنة ٥٢٠هـ وله مؤلفات جليلة ، منها « سراج الملوك » و « التعليقة » فى الخلافيات . انظر : الأعلام للزركلي (٣٥٩/٧) .

الفلاسفة ، ورموز الحلاج ، وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين ، حتى قال عنه : انه غير انيس بعلوم الصوفية ولا خبير بها !!

هذا ما نقله عنه العلامة تاج الدين إبن السبكى في كتابه الشهير (طبقات الشافعية) . في ترجمته للغزالي .

وقد رد عليه ابن السبكي بان هذه دعاوي عارية عن الدلالة . قال : وما ادري كيف استجاز في دينه ان ينسب هذا الحبر إلى أنه دخل في وسوسة الشيطان ؟ !

كما رد ابن السبكي على دعوى شوبه علوم الصوفية بآراء الفلاسفة بأنه لم يصنف (الاحياء) إلا بعد ما ازدرى علومهم ، وحذر من كتبهم ، وليس في الكتاب للفلسفة مدخل . . والرجل ينادي على كافتهم بالكفر . وانكر ان يكون في الكتاب رموز غير اشارات القوم التي لا ينكرها عارف ! قال : وليس للحلاج رموز يعرف بها . وأما دعواه انه غير أنيس بعلوم الصوفية ، فمن الكلام البارد ، فانه لا يرتاب ذو نظر بأن الغزالي كان ذا قدم راسخ في التصوف .

نقد المازري :

وبعد الطرطوشي الامام أبو عبد الله المازري المالكى (ت ٥٣٦هـ) الذي أنكر على الغزالي في (الاحياء) الاستناد إلى الاحاديث الواهية ، وانه يستحسن اشياء مبناها على مالا حقيقة له . كما أنكر قوله : من مات بعد بلوغه ولم يعلم أن الباريء قديم مات مسلما إجماعا . . أنكر القول ، وأنكر نقل الاجماع فيه .

وانكر بشدة على الغزالي دعواه ان في علومه ما لا يسوغ أن يودع في كتاب ، قال : ان كان حقا فلم لا يودع في الكتب ؟ ألغموضه ودقته ؟ . . فما المانع أن يفهمه عليه ؟ . . وذكر انه قرأ (الفلسفة) قبل استبحاره في علم أصول الدين (الكلام) فأكسبته الفلسفة جرأة على المعاني ، وسهولة الهجوم على الحقائق .

وردابن السبكى على المازري ، وبين علة ذلك ، وهي تعصبه في الكلام للأشعري ، وفي الفقه لمالك ، والغزالي - كشيخه إمام الحرمين - ربّما خالفا الشيخ الأشعري في مسائل من علم الكلام ، والمغاربة يستصعبون ذلك ، حتى قال المازري في مسألة خالف فيها امام الحرمين أبا الحسن الأشعري ، وليست من المسائل المهمة : « من خطّأ شيخ السنة أبا الحسن الأشعري فهو

المخطّأ » !

وربما ضعفا مذهب مالك في كثير من المسائل ، كما فعلا في مسألة المصالح المرسلة هذا الى اختلاف الطرق والاذواق ، فطريقة المازري الجمود على ظاهر العبارات ، والوقوف معها ، والغزالي يتعمق في الحقائق ، ويميل إلى إشارات القوم (يعني الصوفية) واختلاف الطريقين ، يوجب تباين المزاجين ، وبعد ما بين القلبين ، لاسيما قد انضم اليه المخالفة في المذهب .

ثم رد ابن السبكي على المازري انتقاداته على الغزالي ، فبين من الناحية التاريخية أن الغزالي لم ينظر في الفلسفة إلا بعد ما استبحر في علم الكلام ، كما ذكر ذلك في (المنقذ) .

وأما دعوى الجرأة على المعاني ، فليست له جرأة إلا حيث دله الشرع ، ويدعى خلاف ذلك من لا يعرف الغزالي .

وأما ما عاب به (الإحياء) من توهية بعض الاحاديث ، فالغزالي معروف بأنه لم تكن له في الحديث يد باسطة .

وعامة ما في (الإحياء) من الاخبار والآثار مبدَّد في كتب من سبقه من الصوفية والفقهاء .

وأما الأحاديث الموضوعة في كتابه ، فليس هو الذي وضعها ، حتى ينكر عليه !

واما مسألة من مات ولم يعلم (قِدَم الباري) ففرق بين عدم الاعتقاد بالقدم واعتقاد ان لا قدم . والثاني هو الذي اجمعوا على تفكيره .

وكلام الغزالي فى (المسلم الساذج) المؤمن بالله على الجملة ، فهو الذي ادعى الغزالى الاجماع على انه مؤمن ناج ، من حيث مطلقُ الايمان الجملي .

واما ما أشار إليه الغزالي من العلم الذي لا يودع في كتاب ، فهو يدافع عنه بشدة بأن للعلوم دقائق نهي العلماء عن الافصاح بها ، خشية على ضعفاء الخلق وأمور أخر لا تحيط بها العبارات .

واستدل بما روى البخاري في صحيحه من قول على كرم الله وجهه : حدثوا الناس بما يعرفون . اتحبون أن يكذب الله ورسوله ؟ !

نقل عن الشافعي : أنه كان يذهب إلى أن القاضي يقضي بعلمه ، وكان لا يبوح به مخافة قضاة

السوء[1] .

ولا شك أن بعض دفاع ابن السبكي قابل للمناقشة والرد .

نقد ابن الصلاح :

ومن منتقدي الغزالي : الحافظ تقي الدين ابن الصلاح ، بسبب ادخاله (المنطق) في علم (أصول الفقه) وقوله في أول (المستصفى) : هذه مقدمة العلوم كلها ، ومن لا يحيط بها فلا ثقة بعلومه اصلا . فقد اعترض ابن الصلاح على الغزالي في ذلك بأن الصحابة وسلف الأمة لم يعرفوا المنطق ، وعنهم أخذ علم الدين .

وقد رد الامام التقي السبكي على ابن الصلاح ، كما نقله عنه ابنه في (الطبقات) وبين ما جد من الحاجة إلى المنطق ، حيث لم تكن هذه الحاجة قائمة في عهد الصحابة والتابعين ، لا إليه ولا إلى غيره من العلوم التي كانت حاصلة عندهم بأصل الفطرة والنشأة ، وجهد في تحصيلها من بعدهم ، مثل أصول الفقه واللغة والنحو والتصريف وغيرها .

قال : ولا ينكر فضل الشيخ تقي الدين (ابن الصلاح) وفقهه وحديثه ودينه ، وقصده الخير ، ولكن لكل عمل رجال .

نقد ابن الجوزي :

وممن انتقد الغزالي بقوة : الحافظ النقاد المؤرخ الفقيه ابو الفرج ابن الجوزي (ت ٥٩٧)

---

(١) طبقات الشافعية حـ ٦ ص ٢٥٣ وما بعدها ، وانظر : المدرسة السلفية وموقفها من علم المنطق وعلم الكلام للزميل الدكتور / محمد عبد الستار نصار ص ٢٩٣ - ٣٠٢ ففيها مناقشة موسعة لفتوى ابن الصلاح في تحريمه الاشتغال بالمنطق ، وقد شارك ابن الصلاح في ذلك عدد من علماء المذاهب في المشرق والمغرب مثل أبي اسحاق المرغيناني ، وابن عقيل ، وابن الجوزي ، والقشيري ، والطرطوشي والمازري والنووي وابي شامة ، وابن تيمية .

وذلك في مواضع عدة من كتابه النقدي القيم (تلبيس ابليس)[١] كما عرض لشيء من ذلك في ترجمته للغزالي في كتابه (المنتظم)[٢] .

وذكر انه ألف كتابا خاصا جمع فيه مآخذه على (الاحياء) سماه (إعلام الأحياء ، بأغلاط الإحياء) لم يتح لي الاطلاع عليه ، واحسبه لم يطبع .

ومأخذه الأساسي على الاحياء أمران :

الأول : انه وضعه على مذهب الصوفية ، وترك فيه قانون الفقه ، وعلل ذلك بأنه صحب الصوفية ، فرأى حالتهم الغاية ، ونظر في كتبهم ، وكلام القدماء منهم فاجتذبه ذلك بمرة عما يوجبه الفقه[٣] .

ومن قرأ (التلبيس) وجد فيه شيئا كثيرا من ذلك ، وهو يعجب كيف يصدر هذا من فقيه مثله ! أو يقول : عزيز عليَّ أن يصدر هذا من فقيه !!

وأحيانا يذكر ما ينقله الغزالي عن الحارث المحاسبي ، ويعجب منهما على علمهما كيف يقولان ذلك ؟ !

ثم يقول : والحارث أعذر عندي من أبي حامد ؛ لأنه كان أفقه[٤] .

وذكر مرة ما حكاه ابو حامد من أحوال الصوفية ، ومبالغاتهم في الزهد والسلوك وهضم النفس وتربية المريدين ، إلى حد معاقبة النفس بالوقوف على الرأس طول الليل أو رمي المال في البحر - بدل التصدق به - خشية الرياء . ثم قال[٥] : « واني لأتعجب من ابي حامد كيف يأمر بهذه الاشياء التي

---

(١) انظر على سبيل المثال الصفحات : ١٦٥ ، ١٧٦ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٣٠١ ، ٣٢٣ ، ٣٣٩ ، ٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٦١ .

(٢) جـ ٩ ص ١٦٨ - ١٧٠

(٣) المصدر السابق ص ١٦٩ .

(٤) انظر : تلبيس ابليس ص ١٧٦ .

(٥) نفسه ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

تخالف الشريعة ، وكيف يحل القيام على الرأس طوال الليل ؟ وكيف يحل رمي المال في البحر ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اضاعة المال ؟ إلى أن قال : فما أرخص ما باع أبو حامد الغزالي الفقه بالتصوف !!

والمأخذ الثاني : انه ذكر في (الاحياء) من الاحاديث الموضوعة وما لا يصح غير قليل ، قال : وسبب ذلك قلة معرفته بالنقل ، فليته عرض تلك الاحاديث على من يعرف . وانما نقل حاطب ليل[(١)] .

والعجيب أن ابن الجوزي نفسه لم يسلم مما عاب به الغزالي واخاه أحمد الواعظ فحشا كتبه الوعظية بما لا يصح ولا يثبت ، مثل كتابه (ذم الهوى) وغلبت فيه طبيعة الواعظ ، على طبيعة الناقد الحافظ ، صاحب كتب (الموضوعات) و (العلل المتناهية) وغيرها !

ومن قبل لاحظ ذلك العلامة المؤرخ (ابن الأثير) وسجله على ابن الجوزي[(٢)] والمعصوم من عصمه الله .

نقد ابن تيمية :

ومن الذين انتقدوا الغزالي بشدة من المتقدمين شيخ الاسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨) الذي تميز عن الغزالي بتبحره في علم الحديث وفقهه رواية ودراية ، حتى قيل : كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث : فجمع بين المنقول والمعقول ، وبين اثار السلف وعلوم الخلف ، مع يقين لا يتزعزع بوجوب (الاتباع) الصارم ، لما كان عليه الصحابة ومن تبعهم من خير القرون .

---

(١) المنتظم لابن الجوزي جـ ٩ ص ١٦٩ .

(٢) عند حديثه عن أحمد الغزالي الواعظ ـ شقيق الامام ابي حامد ـ وانتقاد ابن الجوزي له بروايته الاحاديث التي لم تصح في وعظه . قال : والعجب انه يقدح فيه بهذا وتصانيفه هو ووعظه محشو به ، مملوء منه ! (الكامل جـ ١٠/ ٦٤٠ ط بيروت) .

تعقب ابن تيمية أبا حامد الغزالي في (الرسالة السبعينية) معلقا على بعض ما ذكره الغزالي في بعض كتبه ، مثل (معيار العلم) و (فيصل التفرقة) و (جـواهر القـرآن) من اقوال وتأويلات ، رأها مخالفة لمنهج السلف ، وانها من جنس كلام الفلاسفة والقرامطة الذين طالما أنكر عليهم . ومما قاله هنا : (وصاحب « الجواهر » - لكثرة نظره في كلامهم ، واستمداده منهم - مزج في كلامه كثيرا من كلامهم ، وان كان قد يكفرهم بكثير مما قد يوافقهم عليه في موضع آخر !)[1] وهو يحذر من الاغترار بكلام الغزالي هنا خاصة ، لما له من الحرمة والمنزلة عند المسلمين .

وفي (الفتاوي الكبرى) يتحدث عن (الاحياء) وان فيه فوائد كثيرة ، لكن فيه مواد فاسدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد ، والخطر في خلطها بمعارف الصوفية ، فتكون بمنزلة من أخذ عدوا للمسلمين ، فألبسه ثياب المسلمين ! وقد أنكر أئمة المسلمين على أبي حامد هذا في كتبه وقالوا : امرضه (الشفاء) ! يعنون (شفاء) ابن سينا في الفلسفة . . وفيه احاديث واثار ضعيفة ، بل موضوعة كثيرة .
وفيه اشياء من اغاليط الصوفية وترهاتهم .

ويعترف ابن تيميه منصفا بان في (الاحياء) - مع ذلك - من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين في اعمال القلوب ، الموافق للكتاب والسنة ، ومن غير ذلك من العبادات والادب - مما هو موافق للكتاب والسنة - ما هو اكثر مما يرد منه . فلهذا اختلف فيه اجتهاد الناس وتنازعوا فيه .[2]

كما رد عليه في (الفتاوي) في قوله : ان تعلم المنطق فرض كفاية ، واعتبر هذا اغلطا عظيما عقلا وشرعا ، وذكر ان بعض المنطق حق ، وبعضه باطل ، وان اكثر ما فيه من حق لا يحتاج اليه ،

---

(١) الرسالة السبعينية ص ٤٢ ضمن الفتاوي الكبرى - ط . فرج الله الكردي جـ ٥ وانظر ص ١٠٧ ايضا .
(٢) الفتاوي الكبرى جـ ٢ ص ١٩٤ .

والقدر الذي يحتاج اليه منه تستقل به الفطر السليمة . وأكد انه علم لا ينتفع به البليد ، ولا يحتاج اليه الذكي [1] ، وفصل ذلك في رده على المنطقيين .

وفي كتابه (نقض المنطق) نراه يحاسب الغزالي على اساس توثيق الكتب المشكوك في نسبتها اليه مثل (المضنون) و (المشكاة) و (المعارج) ونحوها . لتشابه كلامه فيها مع الكتب الأخرى الثابتة النسبة اليه . وهذا وحده لا يكفي لاثبات نسب هذه الكتب من الغزالي عند الانصاف .

تعقيب وتقويم :.

لا نزاع في ان هؤلاء الذين نقدوا الامام الغزالي ائمة كبار أيضا ، ولا ريب أنهم فيما أخذوه على الغزالي لم يكونوا أصحاب هوى ولا غرض دنيوي . ولكن كثيرا من مآخذهم على أبي حامد ، راجع إلى اختلاف المشارب والامزجة والثقافات ، كما أشار إلى ذلك الامام تقي الدين السبكي ، وابنه التاج السبكي فيما ذكرناه من قبل .

ومما ينبغي ان نسجله هنا : ان الذين انتقدوا الغزالي لم يغمط حقه فيما احسن فيه ، بل كلهم أشاد بعلمه ونبوغه وفضله .

فالطرطوشي يقول عنه : رأيت الرجل ، وكلمته ، فرأيته رجلا من أهل العلم ، قد نهضت به فضائله ، واجتمع فيه العقل والفهم ، وممارسة العلوم طول زمانه . [2]

وابن الجوزي يقول : صنَّف الكتب الحسان ، في الاصول والفروع ، التي انفرد بحسن وضعها وترتيبها وتحقيق الكلام فيها [3] ، ومع انتقاده لكتاب (الاحياء) نراه عمل على اختصاره وتلخيصه في مهذب منه سماه (منهاج القاصدين) .

---

(١) نفســه ص ١٩٥ .

(٢) طبقات الشافعية جـ ٦ / ٢٤٣ .

(٣) المنتظم جـ ١٦٨/٩ .

وابن تيمية رغم نقده للاحياء يقول : ان فيه من المواد النافعة اكثر مما يرد منه .

ومع هذا لم يسعهم ان يسكتوا عما يرونه خطأ أو باطلا من كلام الغزالى ، نصحا لله ولرسوله وللمؤمنين . فلم يكن بينهم وبين الغزالي محاسدة أو منافسة ، ولكن ليس في العلم كبير . وكل أحد - دون رسول الله صلى الله عليه وسلم - يؤخذ منه ويرد عليه .

الغزالي والتصوف :-

ومما لا ريب فيه ان ابرز ما أخذ على الغزالي : اندماجه في طريق الصوفية اندماجا يكاد يكون كاملا ، واذعانه لما عند القوم من معارف وأحوال واعمال ، دون ان يحاكمها إلى منطق الفقه وأصوله .

فقد ذكر في (المنقذ) انه - بعد ان سبر ما عند الفلاسفة والمتكلمين والباطنية ولم يجد فيها ما يهبه اليقين ، ويهديه إلى الحقيقة التي ينشدها - انتهى به المطاف إلى طريق الصوفية ، فعلم يقينا - كما يقول هو - انهم (هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وان سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم اصوب الطرق ، واخلاقهم ازكى الاخلاق . بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكم الحكماء ، الواقفين على اسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئا من سيرهم واخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إلى ذلك سبيلا . . وان جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الارض نور يستضاء به .

(وبالجملة : فماذا يقول القائلون في طريقة طهارتها - وهي أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى . . ومفتاحها - الجاري منها مجري (التحريم) من الصلاة - استغراق القلب بالكلية بذكر الله . . وآخرها : الفناء بالكلية في الله ؟!) . وهذا الآخر بالاضافة إلى ما يدخل تحت الاختيار والكسب ولكن الترقي مستمر حتى ينتهي إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، ولا يحاول معبر ان يعبر عنها الا اشتمل لفظه على خطأ صريح . لا يمكن الاحتراز عنه . قال : وعلى الجملة : ينتهي الأمر إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة (الحلول) وطائفة (الاتحاد) وطائفة (الوصول) وكل ذلك خطأ . . بل الذي لابسته تلك الحالة ، لا ينبغي ان يزيد على ان

يقول :-

وكـــان مـــا كـــان مما لـــست اذكـــره   فـظن خيرا ولا تســأل عن الخـبر[1] !

هكذا كان دخول الغزالي إلى التصوف دخول المحب العاشق ، لا دخول الفاحص الناقد . فلم ينظر إلى علوم الصوفية وتراثهم بعين النقد التي نظر بها إلى علوم الفلاسفة والمتكلمين والباطنية ، بل بعين الرضا والحب . والحب يعمي ويصم .

وعـــين الـرضـــا عنـد كـــل عـــين كليلة   كـما أن عـين السخط تبـدي الســاويـا !
وإذا الحـــبـــيـــب اتى بـــذنـــب واحـــد   جـــاءت محـــاســـنـــه بـــالف شـفـيـــع !

وسر هذا أنه تعامل مع التصوف بقلبه قبل عقله ، وبذوقه قبل فقهه . وهذا ما جعله يقبل أشياء مما أخذ على القوم في الفكر ، وفي السلوك ، دون ان يعرضها على قانون الفقه ، أو منطق العقل . ومن اجل هذا انكر عليه العلامة ابن الجوزي وغيره من الناقدين قوله لكثير من افكار الصوفية واعمالهم واحوالهم ، وهي مخالفة لقانون الشرع . منحرفة عن الكتاب والسنة الصحيحة .

وربما اعتذر ابو حامد في بعض الاحيان عن تجاوزات بعض القوم باعتذارات لا يقبلها منه الفقهاء ، كقوله بعد حكاية الصوفي الذي عرفه الناس بالاصلاح في مَحِلة ، فخاف على نفسه الفتنة ، فدخل الحمام ، وسرق بعض الثياب الفاخرة ، ولبسها وخرج . . فلحقه الناس واخذوا منه الثياب وصفعوه . . وصار يعرف بعد ذلك بـ (لص الحمام) ؟ فسر بذلك وسكنت نفسه !

قال أبو حامد : (فهكذا كانوا يروضون أنفسهم ، حتى يخلصهم الله من النظر إلى الخلق ، ثم من النظر إلى النفس ، وأرباب الاحوال ربما عالجوا أنفسهم بما لا يفتي به الفقيه ، مهما رأوا اصلاح قلوبهم ، ثم يتداركون ما فرط منهم من صورة التقصير)[2] .

---

(١) المنقذ من الضلال ص١٤٥ .
(٢) تلبيس ابليس ص ٤٥٤ ، ٣٥٥ ، وانظر : الاحياء حـ ٣ ص ٢٨٨ ، ط بيروت .

وابن الجوزي شدد النكير على ابي حامد في حكاية هذا وامثاله ، واستحسانه وتبريره .(١)

ومع هذا لا ينكر منصف دارس للغزالي ولكتبه ، ولا حيائه خاصة أنه لم يقبل التصوف بعجره وبجره . بل رفض في حزم تصوف أهل الحلول والاتحاد كالحلاج واشباهه ، ولم يقبل إلا (التصوف السني) القائم على الكتاب والسنة ، واجتهد أن يرد كل فكرة أو خلق أو سلوك ، أو حال ، مما يقول به المتصوفة ، إلى اصول اسلامية ، وان يستدل عليها بالقرآن والحديث والأثر .

كما حول أن يخفف من غلواء القوم في فهمهم للتوكل والزهد ونحوهما وان اصابه شيء من رذاذهم .

ومما يذكر له أنه نبّه على ضرورة (العلم) الشرعي ، لسالك طريق الآخرة ، خلافا لما كان شائعا بين كثير من الصوفية ، ان العلم حجاب ! وقد جعل أول كتاب من كتب (الاحياء) الأربعين (كتاب العلم) واول عقبة يجب ان يجتازها (العابد) هى (العلم) كما في (منهاج العابدين) . وأكد في مواضع لا تحصر : ان السعادة لا تنال إلا بالعلم والعمل .

وقال في رسالة (ايها الولد) : ان العلم بدون عمل جنون ، والعمل بغير علم لا يكون ! يضاف إلى هذا رفضه للتأويلات الباطنية التي تخرج بالنصوص الشرعية عن مقتضي ظواهرها (بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع ، ومن غير ضرورة تدعو اليه من دليل العقل) فان هذا يقتضى بطلان الثقة بالالفاظ وتسقط من منفعة كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ، فان ما يسبق إلى الفهم لا يوثق به ، والباطن لا ضبط له ! ومثل لذلك بقول بعضهم في قوله تعالى :

---

(١) يقول ابن الجوزي هنا : كيف يجوز أن يطلب صلاح القلوب بفعل المعاصي ؟ أو قد عدم في الشريعة ما يصلح من قلبه حتى يستعمل ما لا يحل فيها ؟ وهذا من جنس ما تفعله الامراء الجهلة من قطع من لا يجب قطعه ، وقتل من لا يجوز قتله ويسمونه (سياسة) ومضمون ذلك ان الشريعة ما تفى بالسياسة ! وكيف يجوز للمسلم أن يعرض نفسه لأن يقال عنه : سارق ! وهل يجوز أن يقصد وهن دينه عند شهداء الله فى الأرض ؟؟ إلخ . . انظر : تلبيس ابليس ص ٣٥٥ .

(اذهب إلى فرعون انه طغى) : اى اشارة إلى قلبه ! وقوله (وان الق عصاك) اى ما يتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله فينبغى ان يلقيه ! ومثله حديث (تسحروا فان في السحور بركة) وتأويله بأنه الاستغفار في الاسحار !! وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها .[1] .

ومما يدل على انصافه وتدقيقه ما ذكره في كتاب (ذم الغرور) من (ربع المهلكات) من (الاحياء) حيث لم يغفل عن التنبيه على (المغترين) من المتصوفه برغم دعواهم انهم اهل الله واصحاب البصائر ، قال وهو يعدد اصناف المغترين من الخلق : الصنف الثالث : المتصوفة . وما اغلب الغرور عليهم ! وهم فرق كثيرة ثم ذكرهم وكشف الستار عن غرورهم فرقة فرقة .[2] .

ومن اهم ما ابرزه الغزالي في التصوف : انه نقله من مجرد الذوق والتحليق والشطح والتهويل ، إلى (علم اخلاقى عملي) يعالج امراض القلوب وآفات النفوس ويزكيها بمكارم الاخلاق .

ومن نظر إلى (الاحياء) عرف ان لبابه وغايته في نصفه الاخير . وهو يتكون من ربعين : ربع (المهلكات) وربع (المنجيات) وكل من هذه وتلك عشرة كاملة وكلها تدور حول (الاخلاق) .

فهو ـ كما ذكر في مقدمة الكتاب ـ يذكر في (المهلكات) كل خلق مذموم ورد القرآن باماطته وتزكية النفس عنه ، وتطهير القلب منه .

---

(١) الاحياء جـ ١/٢٧ كتاب (العلم) وأكده في كتاب (آداب تلاوة القرآن) ص ٢٩ ومما يؤسف له ان الغزالي الذي انكر هذا النوع من التأويل المسرف ، مال الى شيء مثله في تأويل الكوكب والقمر والشمس في قصة ابراهيم بأنها حجب من نور بعضها اكبر من بعض ! وليس المعنى بها هذه الاجسام المضيئة الخ . . ما قال في كتاب (ذم الغرور) من (الاحياء) جـ ٣/٤٠٦ ، ٤٠٧ . وهو ما أنكره عليه ناقدوه كابن الجوزي وابن تيمية . وهم محقون . ويؤيدهم منطق الغزالي نفسه .

(٢) الاحياء جـ ٣/٤٠٤ ـ ٤٠٦ .

ويذكر في (المنجيات) كل خلق محمود ، وخصلة مرغوب فيها ، من خصال المقربين والصديقين التي بها يتقرب العبد من رب العالمين .[١] .

كما أخذ عليهم من الناحية العلمية عدم دقتهم في تعريفاتهم لاعمال القلوب لغلبة احوالهم الذاتية والآنية عليهم . ولهذا نجده يعلق على قولين متناقضين ظاهرا في حقيقة التوبة بقوله :
وكلام المتصوفة أبدا يكون قاصرا ، فان عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط ، ولا يهمه حال غيره ، فتختلف الاجوبة لاختلاف الاحوال ، وهذا نقصان .

بالاضافة إلى الهمة والارادة والجد ، حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه لا يهمه امر غيره .[٢] .

ومن تتبع (الاحياء) وغيره من كتب الغزالي ، بانصاف ، وجد انه حاول كبح جماح القوم ، والوقوف بهم عند الحدود والحواجز الشرعية ، وضبط اقوالهم واعمالهم ، بتقييد مطلقها ، وتحديد مبهمها ، واعطائها معنى مقبولا . ونجح في ذلك إلى حد بعيد .

ومن عرف كيف كان التصوف قبل الغزالي ، ثم كيف صار بعده ، عرف فضل الغزالي على التصوف وأهله . وما ترك فيه من اثر واضح ، يشهد به المتخصصون في علم هذا الجانب من جوانب الثقافة والحياة الاسلامية .

وهذا ما اعترف به وقرره الذين عنوا بدراسة التصوف ورجاله وتاريخه ، من المسلمين ، ومن المستشرقين ايضا . وحسبنا ان نذكر هنا ما قاله واحد من اشهر هؤلاء المستشرقين وهو الاستاذ (نيكلسون) فى دراساته عن (التصوف الاسلامى وتاريخه) التى ترجمها الدكتور ابو العلا عفيفى يقول :-

---

(١) من مقدمة (الاحياء) جـ ١ ص ٣

(٢) الاحياء جـ ٤٢/٤ .

« كتب صوفي فارسى من رجال القرن الخامس الهجري ، ينعي على معاصريه تسميتهم شهواتهم « شرعا » وأوهامهم الكاذبة « علما الهيا » ونزوات قلوبهم ورغبات نفوسهم « حبا الهيا »وتسميتهم الزندقة« فقرا » ، والشك« صفاء »وانكار الدين« فناء النفس » ، واهمال شرع النبي « طريقا في التصوف »[١] .

وفي سنة ١٤٠٥[٢] ميلادية ألف القشيري رسالته المشهورة في علم التصوف ، يذكر أهل عصره من الصوفية بما كان عليه قدماؤهم من الورع والتقوى في القول والعمل وما آل اليه التصوف من بعدهم من زوال الورع ، واشتداد الطمع ، وضياع حرمة الشريعة من القلوب ، ورفض التمييز بين الحلال والحرام ، وطرح الاحتشام ، والاستخفاف بالعبادات إلى غير ذلك .[٣] .

« أما ان هذه الصيحة التي صاحها القشيري لم تذهب سدى ، فيرجع السر فيه إلى الغزالي ، فانه مزج التصوف بالقرآن والحديث مزجا تاما ، واستخرج من المجموع مادة واحدة ، وقد بقيت كتبه على الايام لا لأنها من املاء عقله وحده ، بل لانها كانت نتيجة لرغبة صادقة ملحة في تحصيل حياة روحية مطمئنة ، أي أن الغزالي حل مشكلته في نفسه قبل أن يضع نتائجها في كتبه .

وبعد كلام عن عزلة الغزالي ، ورحلته من الشك إلى اليقين ، واهتدائه إلى طريق الصوفية يقول مبينا موقف الغزالي :

« أما الغزالي نفسه فقد تشبث دائما بنقطتين جوهريتين لم تجرح من أجلهما عقيدته في الاسلام : الاولى تقديسه للشرع ، والثانية وجهة نظره في الأولوهية ، فانه أوصد الباب في وجه مذهب وحدة الوجود بقوله ، مع أهل السنة : إن الله تعالى ذات واحدة مخالفة للحوادث ، وانه بمقدار ما يتحقق في النفس الانسانية من صفات الكمال الالهية ، يكون استعدادها لمعرفة الله ، وان العبد عبد ،

---

(١) كشف المحجوب للهجويرى .

(٢) اي قبل ميلاد الغزالي باحدى عشرة سنة فقد ولد سنة ٤٣٩هـ أو ١٠٥٦م تقريبا .

(٣) القشيري ص ٢ - ٣ .

والرب رب ، ولن يصير أحدهما الآخر ألبتة . أما علمنا بالله فموقوف على ارادة الله تعالى ، وهو يعرفنا بنفسه عن طريق ما يوحي به إلى الانبياء والاولياء[١] الذين هم من خلقه . وبهذا المعنى الروحي العميق فهم الغزالي الالوهية ، فقرب الله من قلوب الخلق ، ولكنه قرب « الله » - لا - « الكل في واحد »[٣] .

على ان من اخطر ما يؤخذ على الغزالى - بالنسبة إلى التصوف - هو قضية (الكشف) أو (المكاشفة) التى يحصل الصوفي على علومها وانوارها بعد الرياضة والتصفية الروحية وبعد الترقي في مدارج السالكين ومنازل السائرين ، وقد صرح الغزالي ان (علم المكاشفة) مما لا يجوز ان يودع في الكتب .

واذا جمح به الفكر أو القلم يوما ، فذكر شيئا من الاشارات أو اللمحات مما يحوم حول هذا (الحمى المحرم) ، فسرعان ما يتذكر ويقبض عنان القلم ، حتى لا يبوح بما لا يجوز البوح به من اسرار ومكنونات (لا يحاول معبر ان يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح) كما قال .
وهذه المكاشفات وحديث الغزالي عنها قد جلبت عليه طعن الطاعنين كما رأينا من قبل كلام المازرى وغيره ، ويبدو ان ذلك بدأ فى حياته رضى الله عنه .

ففي مطلع كتابه (منهاج العابدين) - وهو آخر كتاب صنفه ولم يستمله إلا خواص اصحابه ، كما في مقدمة الكتاب المطبوع - يذكر انه ألف في علم طريق الاخرة كتبا ، كاحياء علوم الدين و (القربة إلى الله) وغيرها ، اشتملت على دقائق من العلوم ، اعتاصت على أفهام العامة ، فقدحوا فيها ، وخاضوا فيما لم يحسنوه منها ، وتمثل الغزالي هنا بما يعزي إلى الامام على زين العابدين بن الحسين رضى الله عنهما من شعر يقول فيه :

انى لأكتم من علمي جواهره   كيلا يرى ذاك ذو جهل فيفتتنا

---

(١) الاولياء لا يوحى اليهم . وانما قد يلهمون . والهامهم لم تضمن له العصمة .
(٢) في التصوف الاسلامي وتاريخه ص ٨٣ ، ٨٤ .

وقـد تـقـدم في هـذا أبـو حـسـن إلى الحسـين ، ووصى قبله الحسنـا
يـارب جـوهـر عـلم لـو ابـوح بـه لقيـل لي : أنت ممن يعبـد الـوثنـا !
ولا ستحـل رجـال مـسلمـون دمـى يـرون اقبح مـا يـأتـونـه حسنـا ![1]

وقد اورد التاج السبكى اعتراض الامام المازرى على الامام الغزالي في قوله : ان في علومه ما لا يسوغ ان يودع في كتاب ، وقال : فليت شعري : احق هو ام باطل ؟ فان كان باطلا ، فصدق ، وان كان حقا - وهو مراده بلا شك - فلم لا يودع في الكتب ؟ ألغموضه ودقته ؟ فإن كان هو ، فما المانع ان يفهمه عليه ؟ .

وقد رد السبكى على المازري بأن للعلوم دقائق ، نهي العلماء عن الافصاح بها خشية على ضعفاء الخلق ، وأمور آخر لا تحيط بها . العبارات ، ولا يعرفها إلا أهل الذوق ، وأمور لم يأذن الله في اظهارها لحكم تكثر عن الاحصاء .

قال : وماذا يقول المازري فيما خرجه البخاري في صحيحه من حديث ابي الطفيل : سمعت عليا رضي الله عنه يقول : حدثوا الناس بما يعرفون ، اتحبون ان يكذب الله ورسوله ؟!

وكم من مسألة نص العلماء عن عدم الافصاح بها ، خشية على افضاح من لا يفهمها .
وهذا امامنا الشافعي رضي الله عنه ، يقول : ان الاجير المشترك لا يضمن . قال الربيع : وكان لا يبوح به خوفا من اجير السوء . .

قال الربيع ايضا : وكان الشافعي - رضي الله عنه - يذهب إلى ان القاضي يقضي بعلمه وكان لا يبوح به مخافة قضاة السوء .

فقد لاح لك بهذا انه ربما وقع السكوت عن بعض العلم ، خشية من الوقوع في محذور . . ومثل ذلك يكثر.[2] ا . هـ . كلام التاج السبكى .

---

(١) منهاج العابدين للغزالي ص ٣ ط مصطفي الحلبي بمصر سنة ١٣٣٧هـ .
(٢) طبقات الشافية حـ ٦/٢٥١ ، ٢٥٢ .

والحق ان هذا الرد أو الاعتذار من صاحب (الطبقات) لا يشفي الغليل ، وكل ما ذكره من امثلة لا تدل على اكثر من حجز بعض المسائل عن بعض العوام وامثالهم اذا حيف عليهم ان يسيئوا فهمها ، أو يستغلوها استغلالا سيئا ، وان يخاطب كل قوم بلسانهم ، على قدر عقولهم .

وليس فيما ذكره ما يدل على اخفاء حقائق العلم عن العلماء انفسهم ، فلا يباح به إلا لمن كان المشرب والمذهب ، ممن يؤتمن على السر ولا يفشيه !

والذي يبدو لى من كلام الغزالى ، ومما ذكره من الشعر المنسوب إلى زين العابدين - وما اظنه صحيحا عنه - ينبىء بأن ثمت اسرارا تناقض مقررات الشرع المعروفة ، بحيث لو افصح بها مفصح لحكم عليه بالردة واستبيح دمه . وهذا لا يكون إلا فيما يخالف المقطوع به في الاسلام ، أو ما يسميه العلماء - ومنهم الغزالى نفسه في بعض كتبه - المعلوم من الدين بالضرورة .

والله تعالى قد أنزل كتابه للناس جميعا ليعقلوه ولينذروا به وليعملوا بموجبه ، كما قال تعالى : « ليكون للعالمين نذيرا » الفرقان :[1] « هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا انما هو اله واحد » (ابراهيم : ٥٢) « انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » . (يوسف : ٢) « ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر » (القمر : ١٧) .

وقد يتفاوت الناس فى فهم القرآن والاستنباط منه ، ولكنه ميسر للذكر بالنسبة لهم جميعا ، ومن آتاه الله فهما أو تأويلا - مثل على وابن عباس رضي الله عنهما - فمن واجبه أن يبين للناس ما فهمه ، كل حسب طاقته .

الغزالي وانكار البعث الجسماني :-

واخطر من هذا كله - مما أصاب الغزالى من الصوفية وربما من الفلسفة ايضا - ما اتهمه به

---

(١) ميزان العمل - تقديم وتحقيق د . سليمان دنيا - ص ١٨٢ وما بعدها ط ، دار المعارف بالقاهرة .

الفيلسوف الاندلسي ابن طفيل قديما ، وردده بعض اساتذة الفلسفة الاسلامية حديثا : أنه كفر الفلاسفة الاسلاميين ، لانكارهم البعث الجسماني ، واعتقادهم ان البعث للنفوس خاصة ، وان كل اللذائذ والالام في الاخرة روحية محض . ثم يراه ينتحل هو هذا المذهب ويقره .

وتكفير الغزالي للفلاسفة بهذا - ضمن القضايا الثلاث المعروفة - أمر ثابت عن الغزالي بيقين ، وواضح لكل من قرأ كتابيه : (التهافت) و (المنقذ) .

اما انتحاله للمذهب الذي انكره ، فيبدو هذا في اوائل كتابه (ميزان العمل) حيث ذكر ان الناس في أمر الاخرة اربع فرق :

فرقة : اعتقدت الحشر والنشر ، والجنة والنار ، كما نطق به الشارع ، وأفصح عن وصفه القرآن ، واثبتوا اللذات الحسية التي ترجع إلى المنكوح والمطعوم ، والمشموم ، والملموس ، والملبوس ، والمنظور اليه .

واعترفوا بأنه ينضاف إلى ذلك أنواع من السرور ، وأصناف من اللذات التي لا يحيط بها وصف الواصفين ، فهي مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .
وأن ذلك يجري أبدا بلا انقطاع ، وأنه لا ينال الا بالعلم والعمل .
وهؤلاء هم المسلمون كافة ، بل المتبعون للانبياء على الاكثر من اليهود والنصارى .

وفرقة ثانية : وهم بعض الالهيين الاسلاميين من الفلاسفة اعترفوا بنوع من اللذة لا تخطر على قلب بشر كيفيتها ، وسموها لذة عقلية .

وأما الحسيات فأنكروا وجودها من خارج ، ولكن أثبتوها على طريق التخيل في حالة النوم ، ولكن النوم يتكدر بالتنبه ، وذلك لا تكدر له ، بل هو على التأبيد .

وفرقة ثالثة : ذهبوا إلى انكار اللذة الحسية جملة بطريق الحقيقة والخيال وزعموا أن التخيل لا يحصل الا بآلات جسمانية ، والموت يقطع العلاقة بين النفس والبدن ، والذى هو آلته في التخيل وسائر الاحساسات ، ولا يعود قط إلى تدبير البدن بعد أن اطرحه ، فلا يبقى له الا آلام

ولذات ليست حسية ، ولكنها أعظم من الحسية ، فان الانسان في هذا العالم أيضا ميله الى اللذات العقلية ونفرته عن الالام العقلية أشد . .

وإلى هذا ذهبت الصوفية ، والالهيون من الفلاسفة من عند آخرهم ، حتى ان مشايخ الصوفية صرحوا ولم يتحاشوا ، وقالوا : من يعبد الله لطلب الجنة ، أو للحذر من النار ، فهو لئيم . وانما مطلب القاصدين إلى الله ، أمر أشرف من هذا ، ومن رأى مشايخهم ، وبحث عن معتقداتهم ، وتصفح كتب المصنفين منهم ، فهم هذا الاعتقاد من مجاري أحوالهم على القطع . وفرقة رابعة : وهم جماهير من الحمقى لا يعرفون بأسمائهم ولا يعدون في زمرة النظار ، ذهبوا إلى أن الموت عدم محض ، وان الطاعة والمعصية لا عاقبة لهما ، ويرجع الانسان بعد موته إلى العدم كما كان قبل رجوعه . [1] .

اخذ ابن طفيل قديما ، والدكتور سليمان دنيا[2] حديثا ، من كلام الغزالي هنا ان الصوفية - باعتراف الغزالي - ينكرون البعث الجسماني صراحة ، وحيث ان الغزالي قد رضى طريقهم فهو مثلهم في الاعتقاد ! .

والذي أراه : أن في كلام الغزالي هنا - عن موقف الصوفية من قضية البعث الجسماني والجزاء المادي في الاخرة - غموضا واجمالا . ولا يستطيع المتأمل المنصف لكلامه أن يقطع بأنه يصفهم بانكار الجزاء المادي الاخروى جملة .

انما الذي يفهم منه انهم لا يعيرون اللذات والالام المادية التفاتا ، ولا يعنيهم الا لذات الروح ، وآلام الروح ، وان الالتفات إلى النعيم الحسى ، او العذاب الحسى ، من شأن العوام الذين لا يشغلهم الا هذا الغلاف الطينى الذى اسمه (الجسم) .

---

(١) انظر مقدمته لكتاب (ميزان العمل) ص ١٦٢ وما بعدها .

(٢) انظر : الرسول والعلم - المقدمة ص ٧ ط مؤسسة الرسالة .

ولهذا يعتبرون التطلع إلى هذه الماديات انحطاطا أو لؤما ، كما نقل الغزالي عنهم : من عبد الله طلبا لجنته ، أو خوفا من ناره ، فهو لئيم ! .

فهم هنا لا يجحدون ان لله جنة يطلبها بعض الناس ، ونارا يخافها بعض الناس ، وهم في نظرهم (اللؤماء) الذين لا يصنعون خيرا الا لجزاء مادي ينالونه ! .

وهذا معروف مشهور عن الصوفية انهم يقولون : لا تكن كعبد السوء ؛ ان خاف عمل ، ولا كأجير السوء ؛ ان لم يعط أجرا لم يعمل ! .

وفي هذا ينقلون ما يذكر عن رابعة أو غيرها :

ليس لي في الجنان والنار حظ ... انا لا أبتغي بحبي بديلا !

وقول الصوفية : انما اللذة الروح ، وانما العذاب عذاب النفس ، من باب القصر الاضافي لا الحقيقي ، كما نقول : انما الانسان عقل ، او : ما العلم الا ما نفع ، او : انما الفقيه من يخشى الله ، او انما الميت من مات قلبه وامثال هذا لا يحصى .

وهذا هو الذي يقرأ في كتبهم ويروي عنهم ، فهم لا يجحدون الأجزية المادية ولكنهم يحتقرونها ويحتقرون من يجعلها اكبر همه ، وغاية سعيه ، ويبالغون في ذلك إلى حد يكادون ينكرون عبادة الله رغبا ورهبا ، وخوفا وطمعا .

وهذا يعتبر منهم خطأ وضلالا ، لانه مناف لما في القرآن الكريم ، ولكنه ليس كفرا يخرج صاحبه من الملة . وقد رد عليهم الامام (ابن القيم) في كتابه (مدارج السالكين) ونقلنا عنه ذلك في كتابنا (العبادة في الاسلام) .

وكيف يدعى الغزالي على الصوفية انهم ينكرون المعاد الجسماني ، والجزاء الجسماني ، وهو يذكر في نفس الكتاب (ميزان العمل) ونفس السياق ان ذلك هو اعتقاد المسلمين كافة -بهذا التعميم - بل اعتقاد اتباع الانبياء على الاكثر ؟ .

هل معنى هذا أنه يخرج الصوفية من زمرة المسلمين كافة ؟ وبالتالي يخرج نفسه من المسلمين ؛

لانه رضي طريق الصوفية ، واعتبرها أصوب الطرق ؟ أم يا ترى هو يأخذ من الصوفية السيرة والاخلاق والسلوك . ولا يأخذ عنهم الاعتقاد وبخاصة انه لم يقل : ان عقائدهم اصح العقائد . مع ان العمل ثمرة العقيدة ، والسلوك ترجمة عما في القلب من تصورات ومفاهيم ؟ .

ان هذه التساؤلات تدلنا على أن ما قد يفهم من ظاهر كلام الغزالى مردود : يرده السياق ، ويرده المنطق ، ويردّه صريح كلام الغزالي عن الفلاسفة وعن الصوفية في كتبه الاخرى .

ولو افترضنا خلافاً بين كتب الغزالي ، فإن المتأخر منها يحكم على المتقدم و (المنقذ) من أواخر ما ألف ، وهو فيه مصر على تكفير الفلاسفة بقولهم في المسائل الثلاث المعروفة .

اما القول بأن له مذهبين : أحدهما للجمهور ، والثاني للخواص ، وانه يرى أن عقائد الفلاسفة ليست باطلة في ذاتها ، وانما الباطل ذكرها للعوام ، فهذا ما يرده الثابت الصريح المقطوع به من كلامه في (التهافت) و (المنقذ) و (الإحياء) وغيرها . ومن ادعى غير ذلك فعليه الدليل ولا دليل .

أما ايمان الغزالي بالبعث الجسماني ، وبالآخرة وما فيها من نعيم حسى وروحى أعده الله للمؤمنين في الجنة ، وما فيهما من عذاب مادي ومعنوي أعده الله للكافرين في النار ، فإن كتبه مملوءة به ، فيما لا يحصى من المواضع والاستدلال عليه من مصنفاته من باب تحصيل الحاصل .

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل !

الغزالي وعلم الحديث :.

ومن أهم ما أخذ على الغزالى تقصيره في علم الحديث ، وان شئنا الدقة قلنا : في علوم الحديث . وقد رأينا ابن الجوزي يصفه بأنه في الحديث (حاطب ليل) أي يأخذ كل ما وجده ، دون تمحيص ولا انتقاء .

ويرجع هذا إلى أن المدرسة التي نشأ فيها الغزالي ، وتكونت في حلقاتها شخصيته العلمية ـ

مدرسة امام الحرمين خاصة -كان يغلب عليها الطابع العقلي الجدلي وكان اهم ما يدرس فيها علوم الكلام والاصول والفقه والمنطق والجدل . ولم تكن لها عناية كافية بالحديث وعلومه ، وقلما يسلم المرء من تأثير بيئته .

وقد عيب على شيخه امام الحرمين بعض ما عيب عليه في ذلك ، ولكن الغزالي زاد على استاذه في هذا كثيرا ، لأن الموضوعات التي عالجها -في التصوف والسلوك- تتسع للضعيف من الحديث اكثر مما يتسع الفقه الذي يتعلق بالاحكام ، وبيان الحلال والحرام . ومثل ذلك علم (الأصولين) : اصول الدين ، واصول الفقه ، وهى التي اشتهر بها شيخه .

وقد ذكرت في كتابي (الرسول والعلم) ان الغزالي ذكر في (كتاب العلم) من (الاحياء) نحو ٥٥ خمسة وخمسين حديثا ، منها ١٣ ثلاثة عشر في مرتبة الصحيح او الحسن والباقي ضعيف جدا ، رغم اشتهاره على الألسنة والاقلام[١] .

« ومن الانصاف ان نبين أن الغزالي لم يكن هو وحده الذي سقط في أحابيل الاحاديث الواهية والموضوعة . فقد سقط في ذلك المتصوفة من قبله ، وهو أخذها في كتبهم وأبقاه في كتبه . والمتصوفة معروفون بالتساهل في ذلك ؛ لان مجالهم (الرقائق) .

بل ان الفقهاء لم ينجوا من الوقوع فيما وقع فيه الصوفية . فكثيرا ما ذكروا في كتبهم أحاديث معلقة غير مسندة ولا ثابتة . وهذا ما جعل ابن الجوزي يصف كتابه (التحقيق في تخريج التعاليق) وهذبه ابن عبد الهادي في كتابه (تنقيح التحقيق) ، وصنف الحافظ الزيلعى كتابه (نصب الراية لاحاديث الهداية) وكم فيه من حديث يقول عنه : غريب ، اي لا سند له ولا أصل ، وهو اصطلاح خاص به .

وكتب التفسير حشيت بما لا يصح ولا يثبت من الحديث والاسرائيليات . بل ان كتب الحديث

---

(١) المستصفى جـ ١ ص ٢) .

ذاتها - فيما عدا الصحاح - فيها الكثير من المردود لدي صيارفة الحديث .

حتى كتاب (ابن ماجه) وهو سادس (الكتب الستة) المشهورة ، فيه احاديث حكموا بوضعها !

وانما يعرف ذلك ويميز الصحيح من السقيم ، والمقبول من المردود ، الخبراء الذين آتاهم الله المعرفة بالحديث روايته ودرايته . ولم يكن الغزالي منهم بحكم بيئته العلمية وما غلب عليها من ثقافة .

وهذه - في نظري - نقطة الضعف الاولى والخطيرة عند الغزالي ، وكذلك عند كثير من الصوفية : انه لم يتعمق في العلوم المنقولة من التفسير الاثري والحديث وآثار السلف ، التي هي أساس العلوم الشرعية ، وقد اعترف في كتابه (قانون التأويل) بأن بضاعته في علم الحديث مزجاة .

فهذا جعله يستدل بأحاديث ضعيفة او لا اصل لها ، أو موضوعة مختلقة ، كما يغفل عن احاديث صحيحة ، او متفق عليها ، في موضوعه ، كان يجب ان يذكرها . وربما لو عرفها لغيرت من مسار تفكيره .

ويبدو مما كتبه في مقدمة كتابه الشهير في (الاصول) ، وهو (المستصفى) انه كان يرى أن العلوم النقلية أمرها هين . فقد ذكر في المقدمة : ان العلوم ثلاثة ، منها : عقلي محض كالهندسة والحساب والنجوم . الخ . . وهذه لا علاقة للشرع بها .

ونقلي محض ، كالاحاديث والتفاسير ، والخطب في امثالها يسير ، ويستوي في الاستقلال بها الصغير والكبير ، لان قوة الحفظ كافية في النقل ، وليس فيها مجال للعقل .[1] .

---

(١) طبقات الشافعية (٦/٢١٠) .

ونظرة الغزالي هنا يشوبها القصور ، فهناك النقلة الذين يحفظون الحديث والتفسير - دون تمحيص ولا نقد - مثل الارض التي تحفظ الماء ليستقي منها الاخرون وان لم تنبت هى زرعا ولا كلاما ، كما في حديث ابي موسى الاشعري في الصحيحين .

وهناك الذين يجمعون بين الرواية والدراية ، بين الحفظ والفقه ، بين النقل والنقد ، مثل فقهاء الحديث الذين عرف تراثنا كثيرا منهم مثل مالك والشافعي واحمد والطبري والخطابي وغيرهم من المتقدمين . وفي المتأخرين مثل ابن دقيق العيد ، وابن تيمية وابن القيم وابن كثير وابن حجر وغيرهم : على تفاوت بينهم . وهم الذين شبههم الحديث الصحيح بالارض الطيبة التي ينزل عليها الماء فتقبله ، وتنبت الكلأ والزرع الكثير .

وقد ذكر ابن تيمية ان الغزالي في اواخره قطع بان كلام الفلاسفة لا يفيد علما ولا يقينا ، بل وكذلك قطع في كلام المتكلمين . قال :-

« وآخر ما اشتغل به النظر في صحيح البخاري ومسلم ، ومات وهو مشتغل بذلك[1] » .

وحكى ذلك عنه عبد الغافر الفارسي بعد ان ذكر عودته إلى بلده (طوس) واتخاذه بجوار بيته مدرسة لطلبة العلم وخانقاه (رباطا) للصوفية ، وتوزيع اوقاته على التلاوة والذكر والتدريس ومجالسة اهل القلوب . بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ولحظات من معه عن فائدة . ثم قال :

وكان خاتمة أمره اقباله على حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ومجالسة أهله ومطالعة الصحيحين : البخاري ومسلم ، اللذين هما حجة الاسلام[2] . يعني : بعد القرآن .

ولعله لو استقبل من أمره ما استدبر ، لبدأ بطلب الحديث ، والاعتصام بصحيح السنة وهدى النبوة . فان خير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم .

---

(١) مجموع الفتاوي الكبرى جـ ٤٢/٥) .

(٢) البداية والنهاية جـ ١٧٤/١٢) .

وقد كان بعض شيوخ الصوفية الاولين يقول لمريده : جعلك الله صاحب حديث صوفيا ولا جعلك صوفيا صاحب حديث !

يريد ان من طلب الحديث اولا ، وقف على أرض صلبة ، وجعل الحديث اصلا ، وعرض عليه مواجيد التصوف واحواله ، ووزنها بميزان السنة الثابتة . وبهذا يحكم السنة في التصوف ، ولا يحكم التصوف في السنة .

بخلاف من خاض في التصوف اولا ، ثم طلب الحديث ، فانه غالبا ما يحاول توجيه الحديث ليسند التصوف . وبهذا ينقلب الاصل فرعا ، والحاكم محكوما .

وقد حاول كثيرون قديما وحديثا ان يعتذروا عن استناد الغزالي إلى الاحاديث الضعيفة ، وخاصة في (الاحياء) بان الكتاب في الرقائق والترغيب والترهيب وفضائل الاعمال . والعلماء اجازوا رواية الضعيف في هذا المجال .

وممن اعتذر بذلك للغزالي قديما الحافظ المفسر المؤرخ ابن كثير ، حين ترجم باختصار للغزالي في (البداية والنهاية) فقال عن (الاحياء) :-

« وهو كتاب عجيب ، يشتمل على علوم كثيرة من الشرعيات ، وممزوج بأشياء لطيفة من التصوف واعمال القلوب ، لكن فيه احاديث كثيرة غرائب ومنكرات وموضوعات كما يوجد في غيره من كتب الفروع التي يستدل بها على الحلال والحرام ! فالكتاب الموضوع للرقائق والترغيب والترهيب اسهل امرا من غيره[1] .

واود أن أشير هنا إلى جملة حقائق :-

١ - ان الاستشهاد بالحديث الضعيف في الرقائق والترغيب وفضائل الاعمال ، ليس امرا متفقا عليه ، بل هناك من عارض فيه ، كالبخاري ومسلم وابن العربي وابن حزم وغيرهم . ولكن

---

(١) فلسفة الاخلاق في الاسلام ، ص ٢١٩ = ٢٢٤ .

جمهور العلماء اجازوه .

٢ - ان الذين أجازوا الاستشهاد بالضعيف في المجال المذكور اشترطوا له شروطا ثلاثة معروفة ، منها الا يكون شديد الضعيف ، وان يندرج تحت اصل كلي ثابت بادلة الشرع الاخرى ، والا يعتقد بثبوته ، بل الاحتياط .

٣ - انهم نبهوا على الا تروي الاحاديث الضعيفة بصيغة الجزم ، مثل : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . بل بصيغة التمريض ، مثل : روى عن رسول الله ، وحكى عنه أو ذكر عنه ، او يقال : رواه فلان بسند ضعيف . الخ . . .

٤ - ان (الاحياء) لم يلتزم بهذه الشروط . ولهذا نجد فيه الاحاديث الضعيفة جدا ، والموضوعة . وما لا أصل له ولا سند . وهي للأسف مروية بصيغة الجزم .

ونظر المنزلة الغزالي عند المسلمين ، ومنزلة كتاب (الاحياء) فقد انتشرت هذه الاحاديث الواهية والموضوعة بين جماهير المسلمين .

٥ - ان كثيرا من الاحاديث المذكورة في (الاحياء) ليست لمجرد الترغيب والترهيب وترقيق القلوب ، بل كثيرا ما يستدل بها على موقف الاسلام من بعض القضايا المهمة . كقضية الزهد ، والنظرة إلى المال والغنى والفقر . والتوكل والاخذ بالاسباب . وان للقرآن باطنا وظاهرا ، وان من العلم ما يجب ان يخفى عن الناس حتى عن العلماء . . ونحو ذلك .

٦ - ان بعض الاحاديث الضعيفة يترتب على قبولها اختلال النسب بين الاعمال ، كما رتبها الشرع ، فيعظم ما حقه التصغير ، او يصغر ما حقه التعظيم ، او يقدم ما حقه التأخير ، او يؤخر ما حقه التقديم .

على ان مما ينبغي ذكره هنا أن الحافظ زين الدين العراقي ، قد خدم الكتاب خدمة جليلة بتخريجه الموجز لاحاديثه المطبوع معه في حاشيته ، والمسمى (المغني عن حمل الاسفار ، بتخريج ما في الاحياء من الاحاديث والاخبار) . فيجب على كل قارىء للاحياء مراجعة تخريج العراقي ، ليعرف منه درجة الحديث . وان كان فيه ما يتعقب ، ولكنه مهم ونافع على كل حال .

وكم اتمنى ان يختصر من الكتاب - أعني « الاحياء » - (منتقى) يبقى على روحه وحرارته ، كما

يبقى على فوائده العلمية والتربوية - وهى كثيرة وفيرة - ويحذف التجاوزات والمبالغات ، والاحاديث الضعيفة - أو الشديدة الضعف على الاقل وبهذا نقدم للثقافة الاسلامية خدمة جليلة .

الناقدون للغزالي من المعاصرين :

ليس عجيبا ان نجد من المعاصرين من ينقد الغزالي ، وقد نقده من قبل ائمة سابقون .

والناقدون للغزالي ليسوا فئة واحدة ، بل نراهم مدارس شتى ، وطرائق قددا .

فمنهم من ينقده ، لأشعريته ومذهبه في تأويل الصفات ونحوها ، وما بقى فيه من رواسب التأثر بالفلسفة .

ومنهم من ينقده ، لصوفيته ، ومنهجه ، في نصرة التصوف وتبنّيه .

ومنهم من ينقده ، لدعوته إلى اهمال الحياة المادية ، وتقدم المجتمع ، استغراقا في طلب السعادة الشخصية . وهو اثر من آثار تصوفه .

ومنهم من ينقده ، لاستفادته من أفكار الاخرين ، دون أن ينسبها اليهم .

ومنهم من ينقده ، لأنه رأى افكاره يناقض بعضها بعضا ، وانه يبني في كتاب ما يهدمه في آخر .

ومنهم من ينقده ، لسلبيته أمام الاحداث الكبار المهددة لحياة الأمة من حوله . إلى غير ذلك من الانتقادات التي نجد اكثرها -عند التأمل- ترجع إلى انتقادات السابقين نفسها ، وان لبست لبوس العصر .

هذا إلى انتقادات (العلمانيين) الذين يكرهون الغزالي ، لانهم يكرهون الدين نفسه . وسنحاول ان نذكر هنا ابرز المآخذ الأساسية التي عابها اهل عصرنا على الامام الغزالي ، وسنقتصر منها على ما له طابع عام ، دون ما له انتساب خاص إلى تيار معين ، كالتيار المعادي للأشعرية أو الصوفية بوجه عام .

الغزالي والمصلحة العامة للمجتمع :

مما عابه المعاصرون على الغزالي : اغفال المصلحة العامة للمجتمع المسلم ، وللأمة الاسلامية ، . وفي هذا الشأن وجه استاذنا الدكتور / محمد يوسف موسى - رحمه الله - إلى الغزالي ، نقدا عنيفا في كتابه (فلسفة الاخلاق في الاسلام) فنراه بعد ان فصل القول في مذهبه الاخلاقي ، والفلسفة التي يقوم عليها ، والمصادر التي استقي منها ، وبين رأيه في الفضيلة والسعادة ، والطريق اليها ، وانتهاءه إلى تفضيل حياة الزهد ، والخمول والجوع وترك السعي ، واعتبار ذلك المثل الاعلى - يقول :

(هل وضع فيلسوفنا - وهو يكتب مذهبه في الاخلاق - الصالح العام للمسلمين كأمة لها حظ في الحياة ، ومكانة يجب ان تحافظ عليها ، وغاية جليلة تعمل على الوصول اليها ؟ . .) .

وبعد ان يبين موقف الاسلام الذي يجمع بين الدنيا والاخرة ، ويمزج بين الروح والمادة ، وينكر تحريم زينة الله والطيبات من الرزق ، ويامر بالمشي في مناكب الارض التي جعلها الله لنا ذلولا ، كما يأمرنا ان نعد لاعدائنا ما استطعنا من قوة . . . . فهو لا يغلق ملكوت السموات في وجوه الاغنياء ، كما فعل عيسى عليه السلام ولم يقل النبي صلى الله عليه وسلم - لاحد من اتباعه : بع مالك واتبعني ، كما قال المسيح عليه السلام بل قال لسعد : « انك ان تذر ورثتك اغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » .

بعد هذا يعود الدكتور موسى إلى سؤاله الاصلي .

وقبل ان يجيب الدكتور يوسف موسى على تساؤله ، يذكر رأى الغزالي في الزهد والتوكل وان من ملك لنفسه اكثر من قميص وسروال ومنديل ، او ابتغى لنفسه اكثر من حجرة ، فقد خرج من صفوف الزاهدين !

وبعد ان حكى عن جوع السلف ، ممن كان يطوي بطنه سبعة ايام ، ومن يواصل إلى اربعين ، وان سهلا التُسْتَري كان يفضل الصلاة قاعدا من الجوع ، على الصلاة قائما مع الشبع !

ثم ما ذكره عن التوكل ، وان أعلى مقاماته : مقام الخوّاص ونظرائه ممن كان يدور في البوادي بغيرزاد !

ثم يليه مقام من يلزم البيت او المسجد ، انتظارا لما يبعثه الله من رزق !

بعد هذا يقول الدكتور رحمه الله :

« ونعتقد انه واضح بعد هذا ، ان الغزالي لم يكن -وهو يكتب في مذهبه الاخلاقي -يعنيه الصالح العام ، كما كان يعنيه الصالح الخاص للمتصوفين ، وان مذهبه ليس مذهبا يقوم عليه الاجتماع ، وتسعد به الأمة ، فإنه جعل الغاية من الأخلاق « السعادة » وحددها وعين وسائلها بما يجعلها (السعادة الشخصية) لا العامة ، فكان مذهبه بذلك (مذهبا فرديا) لا اجتماعيا .

وقد كان حريا به -وهو من الذين وصلوا الفهم الدين وأسراره -أن يجعل من الدين ، الذي اشرنا من قبل إلى بعض مزاياه ونظراته للحياة ، عاملا اجتماعيا يأخذ منه مذهبا للاخلاق الاجتماعية ، يتميز بالنبل والصلاحية لبناء الامم وسعادته ، كما فعل الشيخ محمد عبده في (رسالة التوحيد) ، لأن الاسلام جاء لسعادة المجتمع لا لسعادة فريق دون فريق .

« ان هؤلاء المتصوفة ومن اليهم من الذين يسعون وراء سعادتهم الخاصة قوم أنانيون ، بل قوم جمعوا الى الأنانية صفة أخرى ، انهم طلوها بطلاء من الدين يخدع الجهال ، فيحسبون انهم صفوة خلق الله .

وان أسعد أيام امم الغرب التي تتقاتل في سبيل استعمار الشرق ، وخصوم الاسلام واعدائه الذين يتربصون به الدوائر ، لهو اليوم الذى يرون فيه المسلمين آخذين -لا قدر الله تعالى -بمذهب الغزالي ، فيجعلون الغاية التي عينٌ غايتهم ، والمنهاج الذي رسم منهاجهم ، فيصيرون عدما ، أو كالعدم في هذه الحياة التي لا ترحم الضعيف ، والتي تذكرنا بقول الشاعر :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقي صولة المستأسد العادي

« على أنه من الحق للغزالي ان اشير إلى دفاع الاستاذ الكبير يوسف كرم في نقده عنه في هذه

المسألة ، مسألة الغاية القصوى للانسان ، بأنه مادامت آخرة الانسان روحية ، فالدنيا تعتبر عدما أو كالعدم ، والأمة الزاهدة هى الرابحة السعيدة ، وانه في هذا الدفاع يتمنى لو وجدت أمة تجمع على التزام حدود الله ، وتذهب في سبيل الكمال ، إلى حد ايثار العدالة على القوة ، والاحسان على العدالة ، فبهذا يكون ابناؤها ملائكة تمشي على الارض ، ويصلحون الأرض ومن عليها[1] ! .

وهناك دفاع آخر قدمه الاستاذ طه عبد الباقي سرور في كتيبه عن (الغزالي)[1] .

إذ رأى أن الغزالى لا يدعو الناس جميعا لمثل هذا الزهد ، أو لمثل ذاك التوكل . انما يدعو اليه فئة خاصة من الناس ، يكونون فيهم كالشامة ، يهونون عليهم أمر الدنيا واعراضها وزخارفها ، وان لم يطلب من الجميع أن يسعوا سعيها ، وإلا خربت الدنيا ، وهى مزرعة الاخرة ، ولله حكمة فى بقائها وعمارتها .

ونقل الاستاذ سرور من كلام الغزالى في عدة مواطن من (الاحياء) ما يدل على هذه الفكرة . ومما يؤيد هذه الفكرة اعتبار الغزالى الحرف والصناعات والعلوم الدنيوية مثل الطب والحساب ، وكل ما به قوام الحياة من فروض الكفايات التى تأثم الامة بالتفريط فيها .

ومهما يكن من دفاع هذا وذاك عن الامام الغزالي ، فالذي يوحى به مجموع كتب الغزالي الصوفية وما فيها من نزعة شديدة إلى الزهد وإن لم يكن بصورة مباشرة أن الانسان المثالي عنده - وعند المتصوفة بشكل عام - ليس هو الانسان الذى عرفه الصحابة - رضوان الله عليهم - مما فهموه من القرآن والسنة والسيرة - جامعاً بين الدنيا والآخرة ، بين حظ نفسه وحق نفسه وحق ربه وبين ترقية روحه وخدمة مجتمعه ، وبين التمتع بالطيبات والقيام بشكر الله تعالى ، بين العبادة لله ، والضرب في الأرض ، والانتشار فيها ، والمشي في مناكبها ابتغاء فضل الله ، يعمل لدنياه كأنما يعيش ابدا ،

(١) ظهر في سلسلة (اقرأ) التي تصدرها دار المعارف بالقاهرة .

ويعمل لآخرته كأنه يموت غدا .

فعلى قارىء الغزالى ان يستفيد مما لديه من شحنة روحية عالية ، تلين بها القلوب القاسية ، وتجعل الآخرة دائما حاضرة ، وهذا ما يحتاج اليه الناس فى عصر المادية الغالية ، مع الحذر من المبالغات التى تبعد بالمسلم عن منهج الوسطية المستقيم .

الغزالي وانتهاب افكار الاخرين :

وعابوا عليه أنه يأخذ افكار غيره من العلماء ولا ينسبها إليهم ، أو على حد تعبير استاذنا د . يوسف موسى[1] : ينتهبها ! ، ويحكيها كأنها افكاره وآراؤه دون أن يعزوها إلى أصحابها .

هذا مع انه رحمه الله عاب ذلك اشد العيب في كتابه (الاحياء) واعتبره لونا من (السرقة) المموهة بطلاء كاذب ، وذلك في كتاب (ذم الغرور) من ربع المهلكات ، عند حديثه عن المغترين من فرق اهل العلم ، فجعل منهم من (لعله يحكي من الكلام المزيف ما يريد تزييفه فيعزيه الى قائله ، وما يستحسنه فلعله لا يعزيه اليه ، ليظن انه من كلامه ، فينقله بعينه كالسارق له ؟ أو يغيره أدنى تغيير ، كالذى يسرق قميصا فيتخذه قباء ، حتى لا يعرف انه مسروق ! . »[2]

وقد لمست بنفسي كثيرا من ذلك في (الاحياء) حيث ينقل من (الذريعة إلى مكارم الشريعة) للامام الراغب الاصفهاني كثيرا من الافكار ، ولا يعزوها إلى مصدرها ومثل ذلك من (قوت القلوب) لابى طالب المكي ، ومن (الرعاية) للحارث المحاسبي ، الذي قال عنه العلامة الشيخ محمد زاهد الكوثري : ان الغزالي تبطنه في (احيائه)[3] . وهذا امر يلمسه كل من قرا

---

(١) في كتابه (فلسفة الاخلاق في الاسلام) .

(٢) الاحياء حـ ٣ ص ٢٧٥ .

(٣) نقله الشيخ عبد الفتاح ابو غده في مقدمة تحقيقه لـ (رسالة المسترشدين) للمحاسبي . ولكن مما يذكر للغزالي انه اعترف باخذه عنه في (المنقذ) وقال عنه في الاحياء (حـ ٣/٢٦٤) : المحاسبي حبر الامة في علم المعاملة ، وله السبق علي جميع الباحثين عن عيوب النفس ، وآفات الاعمال ، واغوار العبادات .

الكتابين وبخاصة ربع (المهلكات) من الاحياء . فهل كان ذلك غفلة منه ام لانه قرا هذه الافكار ، وتمثلها ولم يعد يذكر من اصحابها ، ام كان طابع العصر يسمح بذلك ولا يحاسب عليه ، ويعتبر هذه الافكار ملكا شائعا ؟

على اية حال ، لقد كان الرجل في هضمه للثقافات والمعارف المتنوعة المصادر ، المتعددة الالوان ، اشبه بالنحلة التي تأكل -بإيحاء ربها- من كل الثمرات ، وتتغذى من مختلف الازهار ، في مختلف الزروع والاشجار ، سالكة سبل ربها ذللا ، ليخرج بعد ذلك من بطنها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس .

وكذلك كان الغزالي ، ان كل ما قرأه وحصله في مراحل عمره المختلفة ، اصبح بمثابة اللبنات ومواد البناء ، التي استخدمها في تكوين البناء الفكري المحكم الذي صممه واقامه ، بفكره ومعرفته

الغزالى وتناقض الافكار :

وعابوا على الغزالى كذلك ما يبدو من اضطراب وتناقض فى افكاره وتعارض فى آرائه ، فهو ينفى فى كتاب ما يثبته فى آخر ، ويحل فى موضع ويربط فى آخر .

وهذا فى الواقع ليس نقدا جديدا موجها الى الغزالى ، بل هذا مما عابه عليه القدماء . عابه بذلك ابن طفيل ، وابن رشد ، وابن تيمية ، وغيرهم .

يذكر ابن طفيل انه كفر الفلاسفة فى (التهافت) لانكارهم حشر الاجساد واثباتهم الثواب والعقاب للنفوس خاصة ، ثم يقول فى كتاب (الميزان) : ان هذا الاعتقاد هو اعتقاد شيوخ الصوفية على القطع ، ثم قال فى (المنقذ) ان اعتقاده هو اعتقاد الصوفية(1) .

---

(١) حي بن يقظان لابن طفيل ص ٦٣ ، ط . دار المعارف .

وقد أدى هذا ببعض دارسى الغزالى الى القول بأن له مذهبين :
مذهب للعوام ، وهو ما ضمنه بعض كتبه مثل (التهافت) .

ومذهب للخواص ، يتبع فيه الفلاسفة ، كما فى (معارج القدس) وغيرها . ذهب الى ذلك الدكتور سليمان دنيا فى كتابه « الحقيقة فى نظر الغزالى » .

وأنا اعيذ أبا حامد أن يكون ذا وجهين ـ وأن يكفر الفلاسفة فى الظاهر ويتبعهم فى الباطن .

ولو جاز ذلك منه فى اوائل حياته ، ايام طلب الظهور والصيت ، لم يجز ابدا بعد أن جعل الدنيا وأهلها وراء ظهره ، وأقبل بكنه همته على الله سبحانه .

وقد بينت ان كلامه عن اعتقاد الصوفية فى الجزاء الاخروى ، لا يفهم منه ـ على القطع ـ ما فيه ابن طفيل .

وغاية ما يمكن قوله هنا : ان الرجل كان ذا نفس قلقة ، وعقل ثائر ، وكان فكره دائم الحركة ، فكثر انتقاله من رأى الى آخر : حتى ثبت على ما هو عليه .

وقد رأينا أن ما قاله عن الفلاسفة فى (التهافت) يؤكده ما قاله عنهم فى (المنقذ) وهو من اواخر مصنفاته . كما أكد ذلك فى (الاحياء) وفى (فيصل التفرقة) .

ثم ان هناك كتبا تنسب اليه تتضمن أراء مناقضة لما قرره فى كتبه المشهورة وتلك الكتب لم يثبت صحة نسبتها اليه .

من ذلك كتاب (المضنون به على غير اهله) وقد انكر العلامة ابن الصلاح نسبته اليه ، وقال : معاذ الله ان يكون له ، وبين سبب كونه مختلقا موضوعا عليه .

قال العلامة ابن السبكى : والامر كما قال : وقد اشتمل (المضنون) على التصريح بقدم العالم ، ونفى العلم القديم بالجزئيات ، ونفى الصفات ، وكل واحدة من هذه يكفر الغزالى

قائلها ، هو واهل السنة اجمعون ، فكيف يتصور انه يقولها ؟ ![1]

وكذا قال الاسنوى فى (طبقاته) :

وينسب اليه تصنيفان ليسا له - بل وضعا عليه ، وهما : (السر المكتوم) ، و (المضنون به على غير اهله[2]) .

وقال ابن رشد : لعله لم يؤلفه[3] .

ويبدو ان هناك كتبا دس فيها على الغزالى ما لم يقله ، دسها فيها اصحاب الاهواء ، واتباع المذاهب المنحرفة ، استغلالا لاسم الغزالى وشهرته ، ليروجوا عن طريق كتبه باطلهم ، او ليشوشوا به على الغزالى ويشنعوا عليه .

ويظهر ان هذا الدس بدأ فى حياة الغزالى كيدا له ، كما حكى هو نفسه فى احدى رسائله الفارسية ، وذلك بعد رجوعه الى التدريس بالنظامية ، والتفاف الطلبة حوله ، ومجيئهم اليه من كل صوب . وحسد الحاسدين له ، وآفة العلماء الحسد ، وخصوصا من المتعاصرين ، وبالاخص اذا اختلفت مذاهبهم ومشاربهم .

فلنستمع اليه يحدثنا عن ذلك فيقول :

« لما استجيبت الدعوة واستمر عمل التدريس ناشطا ، واخذ طلبة العلم من اطراف العالم يفدون ، هاج حسد الحساد ، ولم يجدوا اى طعن مقبول ، غير انهم لبسوا الحق بالباطل ،

---

(١) طبقات الشافعية جـ ٦ ص ٢٥٧ .

(٢) نقله ابن العماد الحنبلي في شذراته جـ ٤ ص ١١ .

(٣) عبده الشمالي دراسات في الفلسفة الاسلامية ص ٥١٣ .

وغيروا كلمات من كتاب : (المنقذ من الضلال) وكتاب (مشكاة الانوار[١]) وادخلوا فيها كلمات كفر ، وارسلوا إلى حتى اكتب على ظهرهما (خط الاجازة) ولكن الله سبحانه وتعالى قد الهمني بفضله وكرمه ، حتى طالعت ووقفت على تلبيسهم ، واطلع رئيس خراسان على هذه الحالة ، وامر بحبس ذلك المزور ، واخيرا نفاه عن نيسابور ، فذهب إلى المعسكر عند ملك الاسلام ، واطال لسان الطعن ، وقد عجز عنه ، ثم اخذ تعليقا صنفته فى ايام الصغر مكتوبا على ظهره (المنخول من تعليق الاصول) وقد زاد عليه جماعة بحكم الحسد من قبل ثلاثين سنة بكلمات تطعن فى الامام ابى حنيفة »[٢]

فلا يؤمن أن يكون بعض الكتب قد دس فيها ـ بعد وفاته ـ عبارات تلزم الرجل ما لم يلتزم . وبخاصة الكتب غير المشهورة . والله اعلم بحقيقة الحال !

الغزالى والغزو الصليبى للشرق الاسلامى :

وعابوا على الغزالى كذلك ان عصره شهد كوارث ضخمة في حياة الامة الاسلامية ، لم يشر الغزالى اليها ، ولا اظهر اهتماما بها ، مثل غزو اهل الكفر للمسلمين في عقر دارهم ،

---

(١) نشر هذا الكتاب الدكتور أبو العلا عفيفي ، واشار في مقدمة نشره إلى صحة نسبة الكتاب إلى الغزالي ، ولكن الدكتور محمد على ابو ريان يذكر : ان المقارنة النصية المباشرة بين (المشكاة) و (احياء علوم الدين) في المواضع المتناظرة ، تكشف عن عدم صحة نسبة المشكاة للغزالي . بل ان الدراسة (الفيلولوجية) النقدية للمشكاة قد اثبتت هذا الرأي (انظر : تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام ، هامش ص ٤٩٢ نشر دار المعرفة الجامعية الاسكندرية ١٩٨٣م) . ولكن كلام الغزالي هنا يثبت صحة النسبة ، فلعل الكتاب دست فيه ـ بعد الغزالي ـ مقاطع من غير كلامه !

(٢) فضائل الانام من رسائل حجة الاسلام ص (٤٥) نقلها من الفارسية إلى العربية الدكتور / نور الدين ال علي ـ نقلا عن الدراسة التي قدم بها الزميل الدكتور على محيي الدين القره داغي تحقيقه لكتاب (الوسيط) للغزالي جـ ١ ص ١٦٣ .

واحتلال الصليبيين لعدد من بلاد الاسلام لاسيما بيت المقدس ، الذى دخلوه فاتحين ، واسالوا فيه الدماء ، انهارا وقتلوا من اهله نحو ستين الفا ، وتفكك الامة امام هذه الغارات الوحشية .

فما لنا لم نسمع صوت الغزالى هنا ، وهو صاحب الكلمة المسموعة ، والصيت المدوى ، والبيان المؤثر ، والحجة البالغة ؟ ما له لا يتحدث عن الجهاد ؟ وما له لا يحرك الجماهير كما فعل من بعده شيخ الاسلام ابن تيمية ؟ ما سر هذه السلبية ؟ .

والحق ان هذا موقف محير من ابى حامد رضى الله عنه ـ ومثله لا يجهل ما يجب أن يقال ، وما يجب ان يعمل في زمن الاغارة على أهل الاسلام ، وقد سجل حكم الجهاد فى مثل هذه الحالة ، وانه فرض عين في كتبه الفقهية ، فما له سكت هنا ، هل غلب الغزالى الصوفى على الغزالى الفقيه ؟

ربما يقال :

ان هذه الاحداث الكبار انما برزت وتفاقمت في العالم الاسلامى في نفس الوقت الذي اتجه فيه الغزالي إلى حياة العزلة والتصوف سنة ٤٨٨هـ وهجر الدنيا بما فيها من صراع البقاء أو صراع الفناء ، فكان محور تفكيره حينذاك انقاذ نفسه من النار ونقلها من (المهلكات) إلى (المنجيات) .

فقد فتح الصليبيون انطاكية سنة ٤٩١هـ ، ثم معرة النعمان في الشهر الأخير من تلك السنة حتى قالوا : انهم قتلوا فيها مائة ألف ، ثم اجتاحوا البلاد كلها يقتلون ويدمرون ، واقتحموا القدس سنة ٤٩٥هـ وذبحوا من ذبحوا مما يذكره التاريخ ولا ينساه وكان الغزالى لا يزال في عزلته ، إذ لم يفارقها إلا في سنة ٤٩٩هـ .

ولكنه بعد ترك العزلة والعودة إلى حياة الافادة ، والتدريس والدعوة ، لم يبد منه ما يدل على عنايته بهذا الأمر ، الذي يتعلق بمصير الأمة ، وسيادتها في أرضها . مما جعل بعض الباحثين يقول : ان الصوفية ـ والغزالي منهم ـ وقفوا من الغارات الصليبية موقفا سلبيا ،

لاعتقادهم انها كانت عقابا الهيا للمسلمين على معاصيهم[١] !

ولعل عذر الامام الجليل ان شغله الشاغل كان الاصلاح من الداخل اولا ، وان الفساد الداخلي هو الذي يمهد للغزو لخارجي ، كما تدل على ذلك اوائل سورة الاسراء فإن بنى اسرائيل كلما فسدوا وافسدوا في الأرض ، سلط عليهم عدوهم ، وكلما احسنوا واصلحوا ردت لهم الكرة عليهم .

لقد وجه اكبر همة إلى اصلاح الفرد ، الذي هو نواة المجتمع ، واصلاح الفرد انما يكون باصلاح قلبه وفكره ، وبذلك يصلح عمله وسلوكه ، وتصلح حياته كلها ، وهذا هو اساس التغيير الاجتماعي ما أرشد فيه القرآن : ، « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (سورة الرعد : ١١)

ويدخل في ذلك اصلاح الحكام بحسن توجيههم والنصيحة لهم . والله أعلم بحقيقة عذره .

الغزالي ومسئولية التخلف العلمي والحضاري للامة :

ولقد ذهب بعض المستشرقين ، وتبعهم بعض المعاصرين من العرب إلى أن الغزالي يحمل وحده تبعة هدم الفلسفة ، والتفكير العقلي الحر ، وانتصار المدرسة التقليدية على المدرسة العقلية ، بل حملوه ـ تبعا لذلك ـ مسئولية انهيار صرح العلوم والحضارة الاسلامية برمتها !!

وآخر ما قرأته في ذلك : كتاب صدر في سلسلة (عالم المعرفة) بدولة الكويت الشقيقة عن (العرب وتحديات التكنولوجيا) وفيه يحمِّل المؤلف (انطونيوس كرم) ومن نقل عنهم من المعاصرين الغزالي ، والمدرسة التي يمثلها ، نتيجة تخلف الأمة ، وسقوط حضارتها !! وهذه

---

(١) مقال د . عمر فروخ في مهرجان الغزالي ، نقلا عن (مقارنة بين الغزالي وابن تيمية للدكتور محمد رشاد سالم ، نشر دار القلم بالكويت) .

لا ريب دعاو عريضة لا يصعب الرد عليها لاى دارس للحضارة الاسـلامية وتيـاراتها ومدارسها . وردنا على هذه الدعوى من وجوه :

(١) : ان فلسفة يستطيع فرد واحد من الناس ـ مهما علا كعبه في المقدرة العقلية والعلمية ـ أن يأتي على بنيانها من القواعد ، بكتاب يؤلفه أو كتب ـ لهي فلسفة جديرة أن تختفي من عالم الفكر ، بل لا تستحق أن تسمى فلسفة .

ان الحقائق اعمق جذورا في الوجود من أن تقتلع بهذه السهولة التي يتصورون أو يصورون ، انما الذي يقتلع وينهار بهذه السهولة هو الاباطيل التي قد تبدو في صورة الحقائق ، أو الاوهام التي تلبس ثوب اليقينيات ، وهي من اليقين عارية . وصدق الله اذ يقول : « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » (سورة الرعد : ١٧) .

(٢) : ان الفلسفة لم تمت تماما بحملة الغزالي عليها ، بل خفت صوتها ، وتقلص سلطانها ، وفقدت ما كان لها من هيل وهيلمان ، وهذا ما كان يريده الغزالي ، ولكن هذا لم يمنع من ظهور فلاسفة كبار ، وخصوصا في المغرب من أمثال ابن باجه وابن طفيل وابن رشد ، وفي هذا يقول (دي بور) الهولندي :

« كثيرا ما يقال : ان الغزالي قضى على الفلسفة في الشرق ولم تقم لها بعده قائمة ، ولكن هذا زعم خاطىء ، لا يدل على علم بالتاريخ ، ولا فهم لحقائق الأمور . فقد بلغ عدد اساتذة الفلسفة وطلابها بعد عصر الغزالي مئـات بل ألوفا »[١] .

وحسبنا أن أشهر فلاسفة الاسلام على الاطلاق ، وأكبر شارح لارسطو ، والذي يعتبره عدد من مؤرخي الفكر قمة التفكير الاسلامي وهو ابو الوليد ابن رشد (ت ٥٩٥هـ) ظهر بعد الغزالي ، بل كان موقف الغزالي اكبر حافز له على

---

(١) تاريخ الفلسفة في الاسلام ـ ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريده ص ٣٥٧ ـ الطبعة الخامسة دار النهضة العربية ـ بيروت .

الانتاج ، والرد والشرح ، كما أشار إلى ذلك الدكتور ابراهيم مدكور .

(٣) : ان الغزالي لم يهاجم الفلسفة من حيث هي تفكير عقلي حر ، يبحث عن حقائق الأشياء ، مستقلا لا مقلدا ، واصيلا لا تابعا ، انما هاجم الفلسفة التي انتسبت إلى الاسلام ، وكتبت بلغة العرب ، وهي لا تمثل الاسلام ، ولا العرب في حقيقتها ، وما هي إلا مركب غير متجانس من الفلسفة المشائية الارسطية مخلوطة بالافلاطونية الحديثة ، يراد اخضاع التعاليم الدينية الاسلامية لها وهي متناقضة في نفسها ، وغير مؤسسة على علم يقيني .

والذي صنعه الغزالي انما هو نقض التبعية والعبودية الفكرية لهذه الفلسفة الغازية ، ووضعها تحت مجهر النقد ، وعلى مشرحة التحليل ، فالانصاف يقول : ان الغزالي قد أعاد إلى الانسان المسلم الثقة بنفسه ليفكر برأسه لنفسه ، بدل ان يفكر له ارسطو أو افلوطين أو غيرهما .

والغزالي حين أظهر عجز الفلسفة ، وتهافت الفلاسفة ، لم يقم ذلك على أساس ديني ، بل على أساس عقلي محض . فهو يقارع الدليل بالدليل ، ويدحض الشبهة بالحجة ، ويهدم الظن باليقين ، يقاوم المنطق بمنطق اقوى ، لا تهوله العبارات الفخمة ، ولا الأسماء الطنانة ، فهو حارب الفلسفة بالفلسفة ، وهو في نقضه للفلسفة فيلسوف كبير ، وان لم يعتبر نفسه كذلك .

(٤) : ان الغزالي لم يهاجم كل شعب الفلسفة (فقد استثنى الرياضيات والطبيعيات والخلقيات والسياسيات منها) انما هاجم الفلسفة الميتافيزيقية ، أو بتعبير استاذنا المرحوم الدكتور / محمد البهي : (الجانب الالهي) من الفكر الفلسفي وهو الجانب الذي يعجز العقل أن يقول فيه كلمة فاصلة ، لأنه فوق قدرته ، وفوق اختصاصه ، وكل ما يملكه العقل هنا قياس الشاهد على الغائب ، أو المحدود على غير المحدود ، أو المخلوق على الخالق ، وهو قياس - بالمنطق العقلي نفسه - مرفوض ، لأنه قياس مع الفارق . وأي فارق اكبر مما بين المخلوق والخالق ؟ !

وقد شارك الغزالي في هذا كثير من كبار الفلسفة في العصر الحديث ، مثل

(كانت) الذي شبه عبارات الفلسفة (الميتافيزيقية) بأنها (ورق نقد بدون ضمان) . كما نقل عنه الدكتور / البهي في كتابه القيم (الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي) .

ومثل فيلسوف المدرسة الوضعية « أوجست كوفت » ا لذي يعتبره الغربيون (ابا علم الاجتماع) الذي يعتبر (الميتافيزيقية) مرحلة انتهت بظهور الاتجاه العلمي الوضعي التجريبي .

وقد رأينا مفكرا عربيا معاصرا مثل د . زكي نجيب محمود ، يشن حملة على التفكير التجريدي فيما وراء المادة ، ويسميه (خرافة الميتافيزيقا) .

فليس الغزالي بدعا في الأولين ولا الاخرين ، اذا هو هاجم اللون من الفلسفة التي لا تنهض بانتشارها دنيا ، ولا يستقيم عليها دين !

(٥) : ان نقد الغزالي للفلسفة ، وحملته عليها وانتصاره للدين ولعقائد الاسلام ، لا يعني انه اصبح خصما للعقل ، أو انه ادار ظهره للفكر الحر . . فهذا ان دل على شيء فإنما يدل على سوء فهم لدين الاسلام ولموقف الغزالي .

فاما سوء فهمهم للاسلام ، فلتوهمهم ان الدين - كل دين - لا يرحب باعمال العقل ويقيسون الاسلام في ذلك على النصرانية التي شعارها : اعتقد وأنت أعمى ! والتي تؤمن بالتعارض بين العقل والدين ، حتى قال القديس الفيلسوف اوغسطين : اومن بهذا لانه محال ! على حين ينكر الاسلام التقليد ، ويدعو إلى النظر ، ويعتبر التفكر عبادة والعلم فريضة ، ويرفض اتباع الظنون والاهواء ، ويقول لاصحاب العقائد المختلفة « قل هـاتو بـرهانكم إن كنتم صـادقين » (البقرة) : (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ ان تتبعون الا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » (الانعام الآية ١٤٨) .

واما سوء فهمهم للغزالي فإن الرجل لم يتنكر للعقل ولا للنظر ، كيف وهو الذي اعلن ان الشك هو اول مراتب اليقين ، وان مطلوبه الذي يسعى وراءه هو العلم اليقيني ، وقد حدده بانه (الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب

ولا يقارنه امكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الامان من الخطأ ينبغي ان يكون مقارنا لليقين ، مقارنة لو تحدى باظهار بطلانه من يقلب الحجر ذهبا ، والعصا ثعبانا ، لم يورث ذلك شكا وانكارا ، قال : ان كل علم مًا لا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه . وكل علم لا امان معه فليس بعلم يقيني[1] . ا هـ (المنقذ من الضلال .) .

وقال فى اواخر (الميزان) : من لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى في العمى والضلال[2] !

كما ذكر في غير موضع من كتبه ان العقل لا يغني عن النقل ، وقد يعبر عنه بالسمع او الشرع ، والنقل لا يغني عن العقل . يقول في كتابه (ميزان العمل) .

ويرى ان العقل كالأس ، والشرع كالبناء ، ولن يغني اس ما لم يكن بناء ، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس .

يقول في كتابه (الاقتصاد في الاعتقاد) :

« فالمعرض عن العقل مكتفيا بأنوار القرآن ، مثل المتعرض لنور الشمس مغمضا الاجفان فلا فرق بينه وبين العميان ، فالعقل مع الشرع نور على نور » .

ويقرر في (الاحياء) ما ذكرناه من قبل ان لا غنى بالعقل عن السماع ، ولا غنى بالسماع عن العقل فالداعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل ، والمكتفي بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنةمغرور ، فإياك أن تكون من أحد الفريقين ، وكن جامعا بين الأصلين ، فإن العلوم العقلية كالأغذية ، والعلوم الشرعية كالأدوية . . وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية ،

---

(١) المنقذ من الضلال ص ٨٧ ، ٨٨ بتقديم د . عبد الحليم محمود .

(٢) الميزان ص ٤٠٩ تحقيق د . سليمان دنيا .

وان الجمع بينهما غير ممكن ، هو ظن صادر عن عمى في عين البصيرة ، نعوذ بالله منه »[١] .

(٦) : ان الغزالي - وان دعا إلى التصوف والزهد والتوكل - لم يدع إلى اهمال شئون الدنيا من زراعة وصناعة وطب وغيرها - بل نراه يعتبر ذلك من الفروض الكفائية على الأمة في مجموعها ، فاذا لم يتوفر فيها العدد الكافي لتلبية حاجاتها من تلك العلوم والصناعات فهي آثمة .

يقول في كتاب (العلم) من (الاحياء) في بيان (العلم الذي هو فرض كفاية) :

«اعلم ان الفرض لا يتميز عن غيره الا بذكر أقسام العلوم ، والعلوم بالاضافة الى الغرض الذي نحن بصدده تنقسم إلى شرعية وغير شرعية ، وأعني بالشرعية ما استفيد من الانبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، ولا يرشد العقل اليه مثل الحساب ، ولا التجربة مثل الطب ولا السماع مثل اللغة : فالعلوم التي ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو محمود وإلى ما هو مذموم وإلى ما هو مباح ، فالمحمود ما يرتبط به مصالح امور الدنيا كالطب والحساب وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية وإلى ما هو فضيلة وليس بفريضة ، أما فرض الكفاية فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب ، اذ هو ضروري في حاجة بقاء الابدان ، وكالحساب ، فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما . وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج اهل البلد . وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين . فلا يتعجب من قولنا : ان الطب والحساب من فروض الكفايات ، فان اصول الصناعات ايضا من فروض الكفايات ، . كالفلاحة والحياكة والسياسة ، بل الحجامة والخياطة . فانه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك اليهم وخرجوا بتعريضهم انفسهم للهلاك . فان الذي انزل الداء انزل الدواء ، وارشد إلى استعماله ، واعد الاسباب لتعاطيه . فلا يجوز التعرض للهلاك باهماله .[٢] .

---

(١) الاحياء جـ ٣ ص ١٧ .

(٢) الاحياء جـ ١ ص ١٦ .

وقد رأيناه ينكر على المشتغلين بالفقه في عصره اهمالهم لبعض فروض الكفايات التي لا تقوم مصالح الأمة إلا بها ، مثل الطب ، وقال : فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة ، ولا يجوز قبول شهاداتهم فيما يتعلق بالاطباء من احكام الفقه ، ثم لا نرى أحداً يشتغل به ، ويتهاترون على علم الفقه ، لاسيما الخلافيات والجدليات ، والبلد مشحون من الفقهاء ممن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع ، فليت شعري كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة ، واهمال ما لا قائم به ؟ ! »[1] .

(٧) : ان (تبسيط) القضايا الكبيرة المعقدة ، التي تتكاثر اسبابها ، وتتداخل عللها ، وتتشابك اطرافها ، ليس من العلمية ولا من الموضوعية في شيء .

فقضية مثل افول نجم الحضارة الاسلامية ، وانحطاط الامة الاسلامية وانسحابها من المقدمة إلى المؤخرة ، وغلبة الجمود والتقليد على الابداع والاجتهاد ، مثل هذه القضية الضخمة المعقدة لا ترجع إلى سبب واحد ، ولا إلى عصر واحد ، بله ان ترجع إلى رجل واحد .

ان لهذا التخلف والانسحاب والجمود اسبابا عدة ، منها السياسي ، ومنها الاجتماعي ، ومنها الاخلاقي ، ومنها الثقافي .

وهذه الاسباب لم تنشأ دفعة واحدة ، ولا في وقت واحد ، بل انها تسري في كيان الأمم كما يسري الداء في اجسام الافراد ، يبدأ صغيرا ثم يكبر ، ضعيفا ثم يقوي ، محدودا ثم ينتشر ، خفيا ثم يظهر ، ثم ان الجسم إذا اصابه مرض ولم يجد من يعالجه اخذت تضعف مقاومته ، فتتسلل اليه الادواء الأخرى ، داء بعد آخر ، حتى تحطمه في النهاية ، كذلك الأمم والحضارات .

ولو أردنا تعليلا واحدا يجمع كل العلل في علة واحدة لم نجد افضل من قول العزيز الحكيم : « ذلك بان الله لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا

---

(١) الاحياء جـ ١ ص ٢١ .

ما بأنفسهم » (سورة الانفال : الآية ٥٣) .

لقد غيرت الامة ما بأنفسها - من افكار ومعتقدات وقيم وفضائل - فغيّر الله ما بها من نعمة وتقدم وانتصار وقوة . سنة الله في خلقه (فلن تجد لسنة الله . تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا) .

كلمة أخيرة نقولها هنا للباكين على الفلسفة ، والمتحاملين على الغزالي :

ان الفلسفة وحدها لا تحيي المجتمعات ، ولا تنهض بالامم ، انما الحياة والنهوض والتقدم الحقيقى بالايمان والاخلاق والعلم ، وطريقها - بالنسبة لامتنا - دعوة محمد - صلى الله عليه وسلم - لا فلسفة ارسطو .

ان الفلسفة قد ازدهرت في الاندلس بعد الغزالي ، وظهر هناك اشهر الفلاسفة على الاطلاق : ابن رشد ، ومع هذا لم يتقدم الاندلس ، بل لم تبق ! بل سقطت وسقطت معها الحضارة الاسلامية هناك ، لأسباب كثيرة يعرفها دارسو التاريخ ، والعالمون بسر تقدم الأمم وتخلفها ، وعلة قيام الدول وسقوطها .

ان المسلمين لا يتقدمون اذا اصبحوا (ارسطيين) أو (فارابيين) أو (سينويين) وانما يتقدمون ويصلحون وينتصرون اذا اصبحوا (محمديين) (قرآنيين) ، يوقنون من دينهم ان طلب العلم فريضة ، وان اتقان العمل عبادة وان عمارة الارض جهاد ، وان الاتحاد على الخير قربة ، وان التعاون على البر والتقوى واجب ، وان اعداد ما استطاعوا من قوة جزء من الدين ، وان الحكمة ضالة المؤمن ، أنى وجدها فهو أحق بها .

بهذا يتقدمون ويتفوقون وينتصرون .

رحم الله الامام أبا حامد الغزالي ، فقد كان عملاقاً من عمالقة الفكر ، واماماً من ائمة الدين ، ورائداً من رواد البحث عن الحقيقة واليقين .